التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب

✍أ. عبيدي سعاد، باحثة في علم الاجتماع

مدخل:

" كلما زادت ثقة الثقافة بنفسها وبمبادئها الإنسانية، عظم طموحها إلى السيطرة، وعكست هذا الطموح في رغبة متزايدة للتوسع المحمول على عقيدة تحرير الإنسانية وإنقاذها من العبودية أو البربرية... التبادل لا يمكن أن يتحقق إلا إذا توفر لدى الجماعة الثقافية الاعتقاد بأن منظومة قيمها هي الأصلح إنسانيا، وأن على انتشارها يتوقف مصير تقدم البشرية وتطورها". برهان غليون

شهد القرن العشرون الكثير من الأحداث والمظاهر التي كانت تعكس في أغلب الأحيان حالة التدهور وكذا تخلف مسار العمل العربي المشترك وبقائه في مواقع جد متأخرة سواء كان هذا العمل في ميدان الاقتصاد أم السياسة ولا سيما الثقافة التي هي مجال هذه الدراسة.

فالاقتصاد العربي لم يصل إلى مستوى التكامل بالرغم من المحاولات العربية المتعددة ولعل أهمها كان مؤتمر قمة عمان عام 1980.

وعرفت مختلف الأقطار العربية تصاعدا للاتجاه الإقليمي حيث اعتبرته آخر وسيلة للحصول على الأمن والاستقرار وكذا الاستقلال الذاتي بعد فشل فكرة الوحدة القومية لاعتبارات سياسية واجتماعية وحتى تاريخية وقد أسهم هذا بشكل كبير في تصاعد التوتر السياسي وتعدد الرؤى والاختلافات.

ولعلنا ندرك تأثير هذه الخلافات على الفكر العربي الذي أصبح مشحونا بالمظاهر الانفصالية ومغذى بالروح الإقليمية الضيقة، إلا أنه ومع كل هذه المظاهر وغيرها فقد برزت بوادر تنبئ بميلاد ظاهرة "تكامل الفكر" خاصة في الآونة الأخيرة، أين لوحظ اتصال فكري بين أقطار الوطن العربي عامة وبين مشرقه ومغربه بشكل خاص.

إنه من الأهمية بمكان الاعتراف بقيمة هذه الظاهرة ظاهرة الاتصال الفكري– وكذا أبعادها وآثارها على المستقبل العربي والذي يحتل منه المجال الفكري والثقافي الحيز الأكبر نظرا لأهميته وخطورته.

لقد برزت هذه الظاهرة بعد فترة طويلة عرف فيها المغرب والمشرق ركودا في الاتصال بين مفكريه ولعل الاستعمار كان سباقا في توليد هذا الركود وتدعيمه لأنه يرى في انقطاع الفكر والمفكرين عن التفاعل والتبادل المعرفي امتدادا لسيطرته وهيمنته.

فالاتصال الفكري والتبادل المعرفي أثناء فترة الاستعمار إن وجد إنما كان اتصالا من جهة واحدة في الغالب، أي من المشرق إلى المغرب، هذا من حيث الشكل أما من ناحية المضمون فقد كان الاتصال محدودا على البعض من مظاهر الإصلاح والفكر الديني، ولا نعيب على هذا لأنه قد يكون نتيجة لظروف الفترة ومتطلباتها.

أما الفترة الحالية، فهي تشهد ظاهرة جديدة قديمة، بذورها سابقة الوجود؛ وعرفت مؤخرا نوعا من النهضة والتوسع، يعبر عنها البعض بحركة تكامل الفكر العربي بفضل تفاعل الفكر بواسطة بعض المقالات والكتب وكذا عن طريق المفكرين واختلاطهم فيما بينهم في إطار الملتقيات والندوات... وأيضا العدد الكبير من مفكري المغرب العربي الذين أصبحوا يكتبون بالعربية.

وهكذا أصبح مفكرو المغرب يناقشون ويتبنون آراء وأفكار المفكرين المشارقة، كما أصبح مفكرو المشرق يقرأون ويطلعون ويتبنون أيضا أفكار المغاربة. فتلك- أي ظاهرة تكامل الفكر العربي- قد أفرزت علاقة جديدة بين المفكرين، قائمة على الفهم ونبذ التطرف وتم بذلك تجاوز عقدة النقص وكذا عقدة التعالي. كما أن حركة الكتاب والندوات ساهمت بقسط وافر في تدعيم ظاهرة التفاعل بين المفكرين. كما لا يمكن الاستهانة أيضا بدور مركز دراسات الوحدة العربية الذي أتاح لمفكري المشرق إمكانية التعرف على كتابات المفكرين المغاربة والعكس وشكل المركز بالفعل محطة للتواصل والتفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب العربيين.

العلاقات التاريخية والجدلية بين الفكر المغاربي والفكر المشرقي:

كان المشرق مصدرا لكثير من التيارات الثقافية والفكرية المعروفة حاليا في المغرب، وسباقا إلى بعثها في هذه الأقطار.

لقد كان المشرق وبالخصوص في القرن الماضي المدرسة الأولى التي يستقي منها المغاربة معارفهم وعلومهم.

إن المغرب العربي لم يأخذ تلك التيارات فحسب، بل تعامل معها وعرف كيف يوظفها سواء في القرن الماضي أم الحالي. ودليل ذلك تلك التيارات الفكرية التي أنتجتها الحركة الوهابية ثم سلفية محمد عبده ووصولا إلى الفكر القومي المعاصر والتي كانت تصل إلى المغرب لتتلون بواقعه وتتأثر بوضعه الثقافي.

إننا لا نستطيع نفي ذلك الاتصال المباشر بين المغرب والفكر الأوروبي، الذي نقل إلينا في أول الأمر عبر تأليفات المشارقة المترجمة. إلا أن الكثير يجعل ذلك الاتصال بين المغرب والثقافة العربية حتى وإن كان في تلك المرحلة محدودا في نخبة ضيقة العدد والإنتاج.

وأثناء حركات التحرر شهد المغرب العربي تغيرات كبيرة لعدة أسباب أهمها قضية التعليم التي كانت تعتبر القضية الوطنية الأولى في الكفاح الوطني كرد فعل على عملية التجهيل والتدمير الثقافي التي مارسها الاستعمار خاصة تجاه كل ما يعبر عن العروبة والإسلام.

فبعد الاستقلال شهدت المنطقة جهودا كبيرة لتعميم التعليم وانتشارا واسعا للتعليم العالي بالإضافة إلى تصاعد عملية التعريب والتي حققت نجاحات معتبرة.

أما المشرق فقد عرف ركودا نسبيا في النشاط الثقافي- وبالخصوص مصر- جعل النخبة المغربية- في المغرب الأقصى خاصة- تبرز، ولكن هناك عاملا أساسيا لا بد من ذكره، وهو أن الثقافة في المغرب ظلت دائما ثقافة معارضة أساسا..[1] فأثناء فترة الحماية

(1) ندوة التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب، مجموعة من الباحثين مجلة المستقبل العربي، العدد 108، فيفري 1988، ص 104

كانت هناك ثقافتان، ثقافة الحماية التي تبثها الإذاعة والوسائل والمؤسسات الرسمية، وثقافة أخرى وطنية انتهجت سبيلها بوسائل خاصة بها وفي الأوساط الشعبية خاصة.

ولم يتغير الوضع في المغرب، بل بقي على نفس الوتيرة أي بحفاظ الدولة على شرعيتها التاريخية، وبقاء المعارضة أيضا محافظة على شرعيتها التاريخية، وبالتالي ظلت الثقافة ثقافتين: ثقافة المؤسسات التابعة للدولة أي الرسمية والتي قاطعها الكثير من المثقفين الشباب ولا يزالون يقاطعونها إلى يومنا هذا، والثقافة الوطنية، ثقافة الرفض والمعارضة ومحاولة التجديد، التي غذتها الليبرالية النسبية الموجودة في المغرب والتي تتيح تعدد الأحزاب وتكوين الجمعيات وإصدار الجرائد والمجلات، وبالتالي تترك شيئا من الاستقلالية للنشاط الثقافي.

ومن نتائجها كانت هذه الظاهرة الثقافية العامة التي شملت الفكر والفلسفة كما شملت الأدب والنقد... لقد كانت مفاجئة بحق بالنسبة للمشرق وحتى بالنسبة للمغاربة أنفسهم والذين لم يكونوا يتوقعون ظهورها بهذا الشكل، إنها ظاهرة عامة بطبيعة الحال وهي عبارة عن وعود في الحقيقة، وعود ربما بات بعضها في مرحلة العطاء وبعضها فيما أعتقد سيبلغ مرحلة العطاء إذا استمر الوضع على ما هو عليه على الأقل..."[1] وما تشهده منطقة المغرب ليس بالضرورة صورة عما يحدث في المشرق فقد شهد هذا الأخير تراجعا في علاقته مع أوروبا، قد يكون راجعا لتراجع اللغات الأجنبية فيه، وبالتالي انقطاع الاتصال بأوروبا، وهذا يظهر دور البعثات الدراسية، حيث نجد أن المغرب العربي لديه آلاف من الطلاب يدرسون في فرنسا، وارتفاع الكم كان من شأنه أن يسهم في الرفع من مستوى الكيف.

الجانب التاريخي للعلاقة:

منذ القديم والمغرب تربطه علاقة بالمشرق، والتي كانت في الغالب علاقة تبعية، أي تبعية المغرب للمشرق ذلك أن هذا الأخير كان مركزا للفعل السياسي وإنتاج العلم والمعرفة لا سيما وأنه كان يحتضن مركز الخلافة أثناء القرون الوسطى، ففي هذه الفترة كان المشرق أكثر اتساعا، فلم يكن يضم الشرق العربي فحسب بل يمتد أيضا إلى المجال الإيراني وبعض الأجزاء من آسيا الشرقية.

(1) ندوة التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب، مرجع سابق، ص (104).

وكذلك الحال بالنسبة للمغرب، الذي كان أكثر اتساعا مما هو عليه الآن، فلم يكن يقصد به شمال إفريقيا فقط، بل كان يستوعب الأندلس التي لا يمكن فصلها تاريخيا عن المجال الحضاري والثقافي للمغرب.

وعلاقة التبعية تلك، لم تكن لتنفي قدرة المغرب على الإبداع وكلنا يعرف أو يسمع عن ابن حزم وابن رشد وغيرهما، إن عطاء المغرب الكبير بالمعنى الحضاري، بما فيه الأندلس كان عطاء منذ القديم جيدا في النوعية ولكن كميا لم يكن كبيرا، لم يكن يوازي عطاء المشرق، لقد كان إسهاما كبيرا في الحقيقة منذ القديم، ثم انحصر جغرافيا مفهوم المغرب بضياع الأندلس..."(1)

إن هجرة ابن خلدون إلى مصر تعني الكثير، فهي بمثابة الاعتراف الضمني بأهمية مصر- المشرق- الثقافية حيث إنها كانت تشكل قطبا حضاريا، خاصة مع نشوء الخلافة الفاطمية، وبقيت تلعب هذا الدور الريادي حتى القرن (19) وأوائل القرن العشرين.

وبعد هذه الفترة عرف الوطن العربي عموما- ومغربه بشكل خاص- الانحطاط، فقد ضاع فيه العلم ولا سيما الشرعي منه والذي وشك أن يفقد إضافة إلى العلوم الأخرى...

ونذكر هنا أن هناك مؤسسات ثقافية مغاربية لعبت في ظل هذه الوضعية، دورا لا يستهان به في الحفاظ على العلوم والمعارف طوال أربعة قرون قبل عصر النهضة كجامع الزيتونة في تونس وجامع القرويين بالمغرب والزوايا التابعة للطرق الصوفية المختلفة في الجزائر.

وعملت هاته المؤسسات على استمرار وتواصل التراث الثقافي إلا أن وجودها وبروزها لا ينفي بقاء التأثير المشرقي ثقافيا خاصة فيما شهده بعد الانتفاضة اللغوية والأدبية والتجديد في العلاقة مع التراث والتي تلاها تيار الإصلاح الديني ثم خطوة جبارة في التاريخ الثقافي والسياسي تتمثل في حركة النهضة. ولعل الكثير من أقطار المشرق لم يكن لها نفس الدور الذي لعبته مصر وكذا الشام، فالحديث عن المشرق هو في الواقع حديث عن هذين القطرين فالمشرق يعني هنا أساسا الشام ومصر، والتيار كان يتحرك بين الشام ومصر، في بعض الأحيان كانت الدفعة تأتي من الشام ثم تنتقل إلى مصر. مصر كانت تستقطب وترحب

(1) ندوة التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب، مرجع سابق، ص (105).

لأسباب سياسية واجتماعية ولكنها فيما بعد لعبت دورا خلاقا بدءا من سنة ألف وتسع مئة (1900) أين عرفت مصر فترة الإبداع والخلق من 1900 أو 1910 إلى 1920 عندما جاءت أجيال من كبار الكتاب والمفكرين. وصارت مصر بين الحربين العالميتين مكانا مشيعا فأثرت كثيرا..."(1)

وحتى بالنسبة للمغرب فقد كانت أواخر القرن التاسع عشر (ق.19) بالنسبة له بداية مرحلة يتنفس فيها، حيث أفرزت المنطقة مفكرين وروادا لم يسمع بهم العالم عامة والمشرق خاصة إلا مع الاستقلال أو بعده أمثال الطاهر حداد وخير الدين التونسي وغيرهما.

لقد تكون بالفعل جيل جديد من المثقفين عبر الصادقية التي كانت تعطي تعليما مخضرما فرنسيا وعربيا، وعبر الزيتونة أيضا. وقد عملت الدولة على استيعاب ذلك الجيل وتمكنت من استقطابه. هذا بالنسبة لتونس أين تأطر جيل المثقفين في صف الدولة فلم يحظ بالإنتاج والإثمار ولم يخرج عطاؤهم للوجود إلا مع بداية السبعينات تقريبا.

لقد عرفت تونس نهضة أكاديمية معتبرة تمثلت في العدد الكبير من الأكاديميين والذين كانوا يساهمون بكتاباتهم وبحوثهم في مجلات متعددة، إلا أن عطاءهم في مجال التنظير والإبداع كان ضعيفا أو شبه منعدم، فهو جيل نظره دائما مصوب للدولة. "أبناء هذا الجيل هم في الحقيقة يائسون من الدولة ولم يعطوا جهودهم كلها ولم يوظفوها في الخلق والإبداع النظري بحيث كان هناك نوع من الإحجام لعله لم يوجد بالمغرب..."(2)

إذن قد تكون هذه العلاقة التي كانت ولا زالت تحكم المثقفين التونسيين بالدولة، أسهمت أو تسببت في ركود الإنتاج الفكري والتنظيري، وهو ما لم يعرفه المغرب الأقصى، أين أفلت الجيل الثاني- جيل الاستقلال- من استقطاب الدولة وكون حركة من المثقفين تمكنت من الخلق والإبداع ناهيك عن الانتاجات الرائعة في مجال الفكر والتنظير بشكل عام.

في الجزائر يمكن أن نشبه الوضع ولكن بكل حذر بما هو في تونس وإن اختلفت الأسباب نسبيا، فالإيديولوجية الرسمية وطبيعة الدولة "المخزنية" حسب تعبير الجابري، جعل

(1) ندوة التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب، مرجع سابق، ص 106

(2) ندوة التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب، مرجع سابق، ص107.

هذه الأخيرة تسيطر على المجال الثقافي وترفض أي تعبير ثقافي يخرج عن إطار مؤسساتها ليتحول الفكر والإبداع العلمي والأدبي إلى أداة إيديولوجية لتبرير الاختيارات الرسمية أو تتحصر في أحسن الحالات في أعمال أكاديمية بحتة قد يرتبط حقلها الإبستمولوجي بالوضع السوسيو- ثقافي والسياسي الرسمي. أما المثقفون القلائل الذين خرجوا عن دائرة المؤسسات الرسمية في الأفكار وتوقف الإنتاج وجمود العطاء توقف إنتاجهم وجمد عطاؤهم الفكري، وهذا يعود إلى الاستعمار الذي كان يركز على الجزائر أكثر من أي بلد مغاربي آخر. إلا أن هذا لم يمنع من ظهور جيل صاعد من المفكرين لعل "مالك بن نبي" يعتبر في مقدمتهم.

الاتصال الحضاري المشرقي- المغاربي (التفاعل):

تفاعل المغرب مع المشرق لا يعني بالضرورة تفاعل المغرب بأكمله مع المشرق بأكمله، وذلك لأن الأقطار العربية سواء في المغرب أم المشرق تتفاوت في درجة تفاعلها حسب أوضاعها السياسية والاقتصادية وكذا ظروفها التاريخية، فهناك إذن اختلاف، ومعالم هذا الأخير لا تزال قائمة.

لقد سجل التاريخ مرحلتين حاسمتين في الاتصال الحضاري بين المشرق والمغرب وهما المرحلة الهلالية والمرحلة الفاطمية.

ومن خلال هاتين المرحلتين تولدت علاقات متبادلة بين القطرين لعل من أبرز صورها ما كان في العصر الحديث من زيارات الإمام "محمد عبده" إلى تونس والجزائر وتأثر الحركة الإصلاحية المغاربية بمختلف تياراتها بتيار النهضة المشرقي بالإضافة إلى مكتب المغرب العربي في كل من دمشق والقاهرة والذي كانت له إسهامات أدبية خاصة، ونذكر هنا الدور الكبير- والمجهول للأسف- الذي لعبته جمعية "العروة الوثقى" في الوصل بين رجالات ومفكري المشرق والمغرب خاصة أولئك الذين هاجروا إلى المشرق.

فقد كانت أعمالهم موجهة أيضا صوب موضوع الدولة، وهو الشيء الذي حال دون بروز حركة فكرية ثقافية قوية إلا في السنين الأخيرة بعد منتصف الثمانينات وانتعاش الحريات السياسية وبالتالي الفكرية وبروز جيل جديد من المثقفين والمفكرين "الأحرار" وشعور الجيل المخضرم- أي الذي عاش الفترة السابقة ولحقت به المرحلة الجديدة- بنوع من الوعي

بضرورة نقد الذات والذي شكل عوامل موجة إبداعية حقيقية في الحقل الثقافي الجزائري مع نهاية الثمانينات وبداية التسعينات.

إن معرفة المشرق بالمغرب كانت أساسا منذ السبعينات، كما أن معرفة المغرب باللغة الفرنسية والتراث الأوروبي لم تأت عن طريق الترجمات العربية فحسب، بل أتت وبقدر أكبر من خلال الترجمات الفرنسية لأعمال الفلاسفة والمفكرين الغربيين والألمان على الخصوص والذي كان لهم بالغ الأثر على المغرب فلسفة وتنظيرا.

وهكذا إذن بقيت علاقة المغرب بأوروبا والفكر الغربي عموما وفرنسا على الخصوص، علاقة قريبة جدا. ولكن هذا لا يعني انقطاع علاقته بالتراث والفكر العربي الإسلامي والمشرقي خاصة أثناء وبعد الاستعمار، على الرغم من فترات التقهقر التي شهدها المشرق بعد الحرب العالمية الثانية وما تلاها من تأزم.

وتجدر الإشارة أيضا إلى أن المغرب تميز بتيارين بارزين- على غرار المشرق أيضا- وهما ما جرى على تسميته بالتيار المحافظ الذي مثلته "جمعية العلماء المسلمين بالجزائر" وجامع الزيتونة في تونس والتيار الحداثي الفرانكفوني الذي أفرزه الوضع الاستعماري. ونجد أن التفاعل لم يطأ هذا الميدان بنسبة كبيرة حيث إن المغرب اكتفى ذاتيا- إن صح التعبير- بهما فلم يكن في حاجة ماسة إلى فكر يأتيه من المشرق فيما يخص التيار "المحافظ" أو التراث "السلفي". أما التيار الآخر فقد كانت أوروبا كفيلة بإشباع المغرب منه.

هناك فجوة كانت ولا تزال آثارها موجودة بين الثقافتين خاصة فيما يتعلق بتواصل الأفكار والمعلومات بين الجناحين حيث يقول د. "غالي شكري" مثلا: "لم أكن أذهب إلى قطر مغربي إلا وأجد شكوى حقيقية خصوصا في أوساط الشباب من أن المشرق مقروء جيدا عندهم، ونحن مفكرو المشرق لسنا على صلة كافية بهم وهذا صحيح...".[1] ودائما في إطار المؤشرات الدالة على تواجد الهوة بين المشرق والمغرب، من الأهمية بمكان الإشارة إلى المرحلة الناصرية التي أثرت في عملية التفاعل بين المنطقتين.

---

(1) ندوة التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب، مرجع سابق، ص10.

فقد سجلت تونس مثلا عداءها للناصرية من قمة السلطة وفي ظل هذا العداء أصبح من الصعب تسجيل تفاعل فكري حقيقي وجاد بين المغرب والمشرق خاصة مصر.

ومع كل هذا فإننا نسجل ابتداء نهاية الثمانينات وبداية التسعينات انتعاشا للتفاعل الثقافي من خلال أعمال مفكري المنطقتين ومشاريعهم أمثال "الجابري" و"العروي" وهشام جعيط و"عبد الكريم الخطيبي"... كما أن إنجازات المفكرين الشباب أصبحت هي الأخرى تنبئ بأفق يتسع لتفاعل ثقافي أكثر إنتاج وجدية أمثال "سعيد بن سعيد"، "الهرماسي"، "محمد وقيدي".

المناهج الحديثة وأثرها على المغرب:

ويرى "الجابري" أن الباحثين المغاربة يتعاملون مع المناهج الأوروبية وفق اتجاهين أساسيين.

فهناك التعامل الأكاديمي المنبعث أساسا من أبحاث الجامعة انطلاقا من الليسانس إلى الدكتوراه حيث يتم فيها التعرض إلى مفكر غربي مثلا، عرضا وتلخيصا وتعليقا.

أما التعامل الثاني ففيه شيء من الخصوصية حيث يعمل الباحث على تجاوز مرحلة الاستنساخ إلى مرحلة الشعور والوعي بالقضايا العربية المطروحة وبالمشاكل المغاربية. "لقد وجدنا أنفسنا بفعل الممارسة مدفوعين بدافع داخلي إلى الرغبة في "تبيئة" المناهج والمفاهيم الغربية لدينا، أي رغبة إعطائها مضمونا أو تكوينا محليا يتناسب مع موضوعاتنا ومشاغلنا الثقافية...[(1)]".

وهكذا أصبح المنهج الغربي لا يقرأ لذاته وإنما لغرض الاستفادة منه في البحوث العلمية وكذا توظيفه في التراث، ويظهر في كثير من الكتابات والمقالات لا سيما الفكرية منها والتي تنادي بضرورة التخلص من هيمنة المفكر الغربي من جهة والدعوة إلى الاستفادة من أدواته العلمية ومفاهيمه ورؤاه من جهة أخرى، "إن المنهجية لم تؤخذ لذاتها، وإنما أخذت من أجل أن توظف وأن يقرأ بها التراث العربي الإسلامي خصوصا...[(2)]".

---

(1) ندوة التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب، مرجع سابق، ص111.

(2) نفس المرجع، ص113.

وتبعا لرأي الجابري فإن "هشام جعيط" في معرض النقد الذاتي للفكر المغربي، يرى أن المفكرين المغاربة في اتباعهم للمنهجية الأوروبية يكونون قد تجاوزوا أو انصرفوا عن مرحلة الإبداع فهم ليسوا مبدعين، على الأقل في مجال المنهجية، وهذا راجع لكثرة الأخذ من الإنتاج الفرنسي، وهو ما نجده حاليا عند الشباب.

فهناك المتأثرون بـ"بارت" "Bart" وآخرون بـ"فوكو"، حيث يقف كل واحد عند من تأثر به، وينتج عن ذلك استنساخ للمفاهيم وإعادة إنتاجها بصفة آلية، إلا أن هذا الانصراف الأحادي الاتجاه مكنهم كذلك من المعرفة بالثقافة الأوروبية وبلغاتها.

من وجهة أخرى فإن هذا التعامل مع الفكر الغربي ومناهجه أدى إلى سعة الثقافة المغاربية (عربية وأوروبية) وسمح لبعض المفكرين المغاربة بتجاوز التبعية التامة إلى نقد الفكر الغربي الذي أخذوا ولا يزالون يأخذون منه، وهو ما يؤكده السيد "يسين" بقوله: "أعتقد أن المحاولات التي قرأناها للجابري ولغيره من جيل الشباب مثل سعيد بن سعيد تكشف أن انتهاك ما أسميه تطبيقا خلاف للمنهج[1].

التيارات الرئيسة للفكر المغاربي:

أصبح المغرب العربي يتميز بتيار فكري برز ابتداء من أواخر الستينيات وهو تيار ليس أكاديميا أو مدرسيا فحسب وإنما يمتاز بتفتحه وتفاعله مع تيارات أخرى عديدة.

فهو تيار يجمع بين التاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع لينتج في الأخير فكرا واسعا وشاملا إلى أبعد حد، وكذلك نجد رجل الفكر في المغرب مثلا ذا تكوين فلسفي وأستاذا للتاريخ وباحثا في علم الاجتماع. وهذا الانفتاح يسمح له بالاطلاع ثم التمكن من العديد من المفاهيم والأدوات المنهجية إضافة إلى تخصصه أو تكوينه الأولي، ليصبح في النهاية ذا رصيد معرفي شخصي يمتاز بالخصوصية.

وهذا ما جعل الفكر المغاربي يتميز وهي في الحقيقة سمة قديمة في الثقافة الإسلامية، وهي القدرة على التركيب، أي التجميع وإعطاء مشهد عام ثقافي أو حضاري أوغير ذلك..."[2].

---

(1) ندوة التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب، المرجع السابق، ص 117

(2) ندوة التفاعل الثقافي بين لمشرق والمغرب، مرجع سابق، ص 113.

والملاحظ من خلال كتابات بعض المغاربة الانتماء الشديد والعلاقة المتصلة بالفكر العربي الإسلامي حيث عمل العديد منهم على إظهار قيمة هذا الفكر.

يجب التأكيد مرة أخرى على قوة معرفتهم بالثقافة الغربية بشكل خاص، إنه إذن فكر شمولي وذو خصوصية، مما يجعله متميزا، ذا آفاق هامة، ثقافية خاصة، لأنه أول ما ظهر كفكر ثقافي سابق للفكر السياسي والإيديولوجي.

فكتابات المغاربة كانت نتاجا لقناعاتهم، والتخصص- كما رأينا- لا يمنع الطلبة والباحثين من الاطلاع ولو نسبيا على الدراسات الفلسفية ومناهج علم الاجتماع وعلم النفس... إلخ. حتى ولو كان هذا التخصص تقنيا أو في المجال الاقتصادي مثلا نجد هذا في الجزائر وتونس والمغرب على حد سواء.

هذا التكوين المتنوع والقراءات المختلفة المشارب أتاحت الفرصة إذن لفهم الكتابات التنظيرية وكذا الاتجاه نحوها والتعامل معها. ويكمن سر احتفاظ الفلسفة ومناهج العلوم بهذه المكانة في منطقة المغرب العربي في الوعي بأهميتها في صياغة الفكر وتوجيهه، ففي المغرب الأقصى مثلا يحرص كافة الأساتذة على صياغة البرامج التي يدرسونها بأنفسهم، ومركز الفلسفة والابستملوجيا ومناهج العلوم، هو مركز معتمد من طرف أساتذة الجامعات، هذه الأخيرة التي نجدها مستقلة لا إداريا أو ماليا فقط وإنما تربويا أيضا.

وتجدر الإشارة إلى أن الحديث عن التيارات الفكرية المغاربية لا يقتصر إطلاقا على الفكر الجامعي أو الأكاديمي- كما ورد سابقا- فهناك مجموعة لا بأس بها من المفكرين والمثقفين الذين أنتجوا كتابات وخطابات خارجة عن إطار الجامعة ومرتبطة ارتباطا وثيقا بالواقع السياسي للمجتمع المغاربي الذي لا يخفي على أحد تشبعه بالتيارات الفكرية المختلفة التي يأتي في مقدمتها التيار الإسلامي باتجاهاته المتعددة في الأقطار الثلاثة (تونس- الجزائر- المغرب)، يشير إلى هذا الدكتور "غالي شكري" وهو يتحدث عن تجربته التدريسية في كل أقطار المغرب فيقول: "...رأيت وسمعت ولمست بنفسي أن هناك تيارا إسلاميا متعدد الروافد، ومتعدد الجداول وشديد الأهمية...".(1)

(1) ندوة التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب، مرجع سابق، ص115

المشهد التنظيري في الفكر المغاربي:

هناك اتفاق على وجود تبعية حقيقية تربط المغرب بفرنسا خاصة وأن الغرب بصفة عامة في مجال الفكر التربوي وقضايا التربية والتعليم عموما. تتجلى هذه التبعية في الاستيراد أو الاستهلاك المباشر للبرامج والمقررات الدراسية لمختلف مراحل التعليم من الابتدائي إلى الجامعة. وقد أفرز هذا الوضع احتلال مقررات الفلسفة ومناهج العلوم مكانة بارزة في البرنامج التعليمي خاصة في المرحلة الثانوية وامتحان البكالوريا طبقا للمخطط التربوي الفرنسي.

ومع الاستقلال وبروز قضية التعريب، طرح السؤال إمكانية حفاظ الفلسفة ومناهج العلوم على مستواها إذا ما عربت وقد تم في الأخير الاحتفاظ بالبرنامج الفرنسي وإدخال بعض التعديلات ثم ترجمته إلى اللغة العربية.

وقد أعطى هدا التنظير قوة ومكانة في المغرب وأصبحنا الآن في كليات الآداب والعلوم أيضا نجد طلبتنا في مختلف الشعب، في الأدب، الجغرافيا والتاريخ، يستطيعون أن يقرأوا للعروي أو الجابري أو أي كتابات تنظيرية..." .(1)

معالم التفاعل الثقافي:

للتأكد من وجود تفاعل ثقافي بين المشرق والمغرب، يكفي الاطلاع على تاريخ المنطقتين والتوقف عند الزيارات التي قام بها أقطاب من المشرق إلى المغرب أمثال "محمد عبده" الذي يقول عنه الشيخ البشير الإبراهيمي: إن أحاديثه المكتوبة أو المروية، تعتبر من العوامل الأساسية في قيام الحركة الإصلاحية بالجزائر، كما يجعل من مجلة "المنار" المشرقية التي كانت تعتبر منبرا لكثير من المفكرين والعلماء أمثال رشيد رضا و"الأفغاني" و"عبده" من الدعائم المتينة التي استندت إليها حركة لإصلاح الجزائرية في نشأتها...(2)

وبالمقابل كذلك كانت هناك زيارات أقطاب من المغرب إلى المشرق أمثال "ابن باديس" الذي لم يكن القصد من وراء سفره إلى المشرق، الحج إلى البيت الحرام فقط بل كان أيضا

---

(1) ندوة التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب، مرجع سابق، ص 114

(2) عبد المالك مرتاض، الثقافة العربية في الجزائر بين التأثير والتأثر، دار الحداثة، ط1 1982، ص74

من أجل "الاتصال برجالاته وتوسيع أفقه العلمي، ومشاهدة ما كان هنالك عن كثب من مظاهر التطور الفكري والحضاري ثم للإلمام بعمق ودقة بأبعاد الحركة الإصلاحية..".[1] وهناك شخصيات مغاربية أخرى كثيرة زارت المشرق وأخذت منه وأثرت فيه أمثال "الإبراهيمي"، "رضا حوحو"، "الورتلاني"... الخ.

ونشير أيضا أنه إلى جانب هذا الاتصال عن طريق الأفراد كان هناك تفاعل بواسطة تبادل الوفود الثقافية من المشرق إلى المغرب مثل رحلة الوفد الصحفي المصري الذي يتألف من عدة وجوه فكرية معروفة مثل "عزيز مرزة" رئيس تحرير جريدة الأهرام و"حبيب حاماتي" ممثلا لدار "الهلال" بصحفها ومجلاتها والدكتور "عبد الحميد يونس" من كلية الآداب بجامعة القاهرة و"أنطوان نجيب" رئيس تحرير جريدة المقطم.."[2]

وكذا تبادل الوفود خلال المهرجانات الثقافية والندوات والمؤتمرات كما لا ننسى أهمية البعثات التعليمية التي أرسلتها الحركات الوطنية المغربية والتيار الإصلاحي لتتكون من خلالها الإطارات المغربية في الجامعات المشرقية والمؤسسات الدينية التقليدية خاصة منها "جامع الأزهر".

خلاصة:

لقد تجسد التواصل بين المغرب والمشرق بأكثر من لحظة وفي أكثر من مظهر، وذلك بالرغم من التباعد الذي فرضته حتميات الجغرافيا من جهة وتدخلات الأيادي الأجنبية المتمثلة في الاستعمار من جهة أخرى.

فالتفاعل بين جناحي الوطن العربي ظل قائما ومستمرا ومحافظا على طابعه الديني والثقافي، بدليل أن المغرب العربي تجاوب وبقوة مع التيارات المشرقية الداعية إلى إصلاح الدين وتطهيره، ولعل احتضان المغرب للحركة الوهابية واعتماده لطرق تفكيرها وكذلك مساندته لزعماء الإصلاح المشارقة أعظم دليل على ذلك.

(1) عبد المالك مرتاض، مرجع سابق، ص114

(2) عبد المالك مرتاض، مرجع سابق، ص 96.

إن التأكيد على ضرورة التسليم بوجود وحدة تاريخية وثقافية للوطن العربي بأكمله لا يستدعي التسليم أيضا باستحالة الفصل بين المشرق والمغرب. وهذا إذا بحثنا في عمق العلاقة التي تربط "الجناحين" سواء تعلق الأمر بمظاهر وحدتهما وتجانسهما من خلال الثوابت الدالة على ذلك أم من خلال العلامات الدالة على خصوصية تطور كل طرف والمؤشرات والمعالم التي أفضت إلى تمييز المغرب عن المشرق، أو العكس. وهو تمييز إن سلمنا بوجوده لا يصل إلى مستوى الانقسام أو القطيعة.

وإذا كان هناك من خلاصة ينبغي التركيز عليهما فهي أن الوطن العربي بشقيه المشرق والمغرب موحد في انتمائه الديني والقومي وإن كان المشرق في تجربته التاريخية مختلفا عن المغرب، ولكن من الضروري التأكيد مرة أخرى على أنه اختلاف تكامل لا تضاد وتناقض.

لقد جمع الإسلام المغرب بالمشرق وإن كان هذا الأخير مهدا للدعوة الإسلامية ومقرا لحكم دولتها (الخلافة)، فإن ذلك لم يمنع المغرب من بناء صرح دولته ومجتمعه بمعطياته التاريخية والجغرافيا والاجتماعية الخاصة.

هذه الخصوصية بتعبير "الجابري" تلح على ضرورة القيام بدراسات جادة وأبحاث علمية عميقة كفيلة بإبراز وتوضيح العلاقة بين المغرب والمشرق حتى نقف عند نقاط التكامل والتداخل أو القطيعة إن وجدت لنصل في الأخير إلى مقاربة علمية تلبس الخطاب العربي واقعية في النظر إلى قضاياه ومشاكله المستقبلية وحينها فقط يمكن تبني حلول جادة وموضوعية لمشاكلنا.